من آيات الله

قيام السماء والأرض

قال تعالى فى سورة الروم: ﴿**ومنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ**﴾ [الروم: ٢٥].

لا يخفى على عاقل ومفكر معرفة أن قيام السماء والأرض منتظمة سليمة، مقدرة الحركات لا يكون إلا بقدرة من الله وتدبير.. وما من مخلوق يملك أن يدعى أنه هو أو سواه يفعل هذا، وما من عاقل يملك أن يقول: إن هذا كله يقع بدون تدبير.

والقيام فى قوله تعالى: ﴿**أن تقوم السماء والأرض بأمره**﴾ مقابل القعود. ولما كان القيام أعدل حالات الإنسان، حيث يقوى به على عامة أعماله، استعير لثبوت الشئ واستقراره على أعدل حالاته، كما يستعار القيام لتدبير الأمر. قال تعالى فى سورةا لرعد: ﴿**أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ**﴾ [الرعد: ٣٣]. ويقول ابن كثير فى قوله تعالى: ﴿**ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره**﴾ كقوله تعالى فى سورة الحج: ﴿**ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه**﴾. وقوله تعالى فى سورة فاطر: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا**﴾ [فاطر: ٤١].

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا اجتهد فى اليمين قال: «والذى تقوم السماء والأرض بأمره» أى هى قائمة ثابتة بأمره لها، وتسخيره إياها.

وقيام السماء والأرض بأمر الله هو حفظ نظامهما، والإمساك بهما. على هذا النظام الذى أوجدهما الله سبحانه وتعالى عليه.

وأمر الله هو سلطانه، وقدرته. وهذا يعنى: إنه إذا ساغ لتفكير إنسان أن يضيف هذا الوجود فى أرضه وسمائه إلى غير الله سبحانه كما يقول بذلك

الملحدون من الطبيعيين، الذين ينسبون الموجودات إلى الطبيعة. ويقولون. إن الأشياء وجدت هكذا بطبيعتها. . نقول إذا ساغ لتفكير إنسان أن يقول مثل هذا القول. فكيف يسوغ له أن يقول: إن هذا التجاوب بين الموجودات، وهذا النظام الذى يمسك بها، ويؤلف منها نسيجاً متلاحماً هو من عمل الطبيعة ذاتها.

إن هذا يعنى: أن الطبيعة عاقلةٌ، حكيمةٌ، مدبرةٌ، عالمةٌ، قادرةٌ. وهذه هى بعض صفات الألوهية. فلم تسمى إذن الطبيعة طبيعة ؟ ولا تسمى إلهاً ؟

إن المسافة قريبة جداً هنا بين الطبيعة وبين الإله، وأنه لأقرب إلى العقل والمنطق أن يقوم على الموجود مدبر واحد، يؤلف بينه وبين وحداته، ويجمع بين أشتاته، بدلاً من قيام مدبرات فى وحدات الطبيعة، وتجعل منها نظاماً واحداً.

ولذلك قال علماء التفسير: أن المراد بقيام السماء والأرض بأمر من الله ثبوتهما على حالهما، من حركة وسكون، وتغيير وثبات، بأمره تعالى. . وقد عرف أمره بقوله: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ [يس: ٨٢].

فمن آيات الله أن تقوم السماء والأرض بأمره، ملبية لهذا الأمر، طائعة له، دون انحراف ولا تلكؤ، ولا اضطراب.

نعم: إن الوجود كله عابد بطبيعته، منصاع لوظيفته، لا يسعه إلا أن يطيع ربه فى ولاء لا يشوبه استنكاف، ولا يطاوله تأب، بل إنه جميعاً من أعلاه إلى أسفله يهتف أمام عظمة القاهر، هتاف العابد تجاه قدسية المعبود، بما سجله الحق فى قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾ [فصلت: ١١].

وقال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ**﴾[الحج: ١٨].

وقال تعالى: ﴿**وإن من شئ إلا يسبح بحمد ربه ولكن لا تفقهون تسبيحهم**﴾ [الإسراء: ٤٤]. والإنسان وإن كان يساوق الكون فى العبادة بفطرته، فإنه ينبغى

عليه أن يفوقه فى العبادة، وأن يعلوه فيها درجات تتناسب وتركيبه وتكوينه المتميز بالعقل والإرادة والإختيار، والميول، والنزعات. بيد أن الإنسان من طبعه أن ينسى أحياناً، وأن يغفل، وأن يجحد أحياناً، وأن يكفر، فكان جديراً بمكانته من ربه أن يذكره الله بحقه عليه فى الطاعة والعبادة.

ولهذا كان قوله تعالى: ﴿**ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره**﴾ دعوة للإنسان للتفكر فى السموات والأرض.

والتفكير السليم يصل بالإنسان إلى معرفة خالق السموات والأرض ومدبر أمرها.

وقد جاء بعد قوله تعالى: ﴿**ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره**﴾. جاء قوله تعالى: ﴿**ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون**﴾ لأن من يرى هذا التقدير فى نظام الكون، وهذه السلطة على مقدراته، لا يشك فى تلبية البشر الضعاف لدعوة تصدر إليهم من الخالق القادر العظيم بالخروج من القبور. ففى قوله: ﴿**ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض**﴾ إشارة إلى أن أمر الله وسلطانه الذى تقوم به السموات والأرض أن تدعوا من القبور بعد موتكم دعوة واحدة فإذا أنتم قيام تنظرون. وهذا يعنى أن البعث بعد الموت، نظام قائم فى هذا الوجود، أشبه بنظام دوران الكواكب فى أفلاكها، والليل والنهار فى فلكهما.

وفى العطف بثم ﴿**ثم إذا دعاكم دعوة**﴾ إشارة إلى أن هذه الدعوة التى يدعى بها الموتى، لم يجئ وقتها بعد، وأنها أمر ستقبل، ولا يعلم أحد متى تكون، وإن كان من المعلوم أنها لا تقع إلا بعد أن يموت الناس جميعاً.

وقوله تعالى بعد الآية السابقة: ﴿**لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ**﴾ [البقرة:١١٦]. إشارة إلى أن هذا الوجود فى سمائه وأرضه هو خاضع لأمر الله، متجيب له، وأن الموتى إذا دعوا من قبورهم، لا يملكون إلا أن يتجيبوا لما دعاهم إليه سبحانه قال تعالى فى سورة مريم: ﴿**إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**

﴿فَرْدًا﴾ [مريم:٩٣-٩٥]. فكل من فى السموات والأرض من خلائق، قانتون لله، طائعون. والقنوت لزوم الطاعة مع الخضوم.

وآيات الله سبحانه وتعالى تلفت الأنظار إلى عجائب الكون الدالة على كمال قدرة الخالق، وحكمته وتدبيره، الناطقة بأن من مقتضيات هذه الحكمة أن يكون هناك بعث لحساب الناس.. وأن يكون من مقتضيات تلك القدرة أن تمتد إلى بعث الناس ورجوعهم إلى الخالق الذى بدأهم.

* * *

obeikandl.com